مستقبل الشعر

للأستاذ يوسف البعيني

أجمع فريق من الحكماء والمصلحين وفي طليعتهم الموسيقي البولوني المشهور أنتون بادريسكي على أن الفنون الجميلة تسير بخطى واسعة نحو الفناء . ومما قاله ذلك البتري الموهوب أن تلك الأنغام العميقة التي كانت ترفع الروح إلى الملأ الأعلى توارت أمام الموسيقى الأميركية الحديثة .

لقد صدق هذا الفنان في تعليله ؛ فإن رجل الفن كان في الماضي البعيد يغذي عبقريته بجمال الطبيعة . أما الآن فهو لا يعنى بإغناء موهبته وتهذيبها ، إذ طغت موجة المادة وتبدلت أغراض الحياة فاختلفت عما كانت عليه في سالف الأجيال .

ليس من ينكر أن عصرنا هو عصر الراديو والسيطرة على عناصر الوجود . فالذوق البشري يتجه اتجاهاً نحو المادة هازئاً بالروح . وقد نجم عن ذلك أن تدنى مستوى الموسيقى والشعر وسائر الفنون . وكما أن الآلة لا تفهم الفن ، فهل يفهمه الإنسان المستعبد للآلة ؟

إن فن الرسم ، وهو من أرق الفنون ، فقد كثيراً من روعته بسبب اختراع آلة التصوير . وقد لاحظ أحد الرسامين أن الفنان في الماضي كان يعنى عناية خاصة بإعطاء الصورة ملامح الوجه وتقاطيع الجسد — وهذا يظهر جلياً في رسوم رفائيل وليوناردو دي فينشي ولاكروا وسواهم — بينما نرى أكثر مصوري اليوم يهتمون بتصوير خطوط سطحية دون أن يعمدوا بإيجاد الفكرة والمقاصد النفسية والخلقية في الإنسان .

وما يقال عن فن الرسم يقال كذلك عن الموسيقى ، إذ أن الموسيقى الكلاسيكية لا تزال مرجعاً للناس في هذا العصر . ولم يظهر حتى اليوم من تفوق على بيتهوفن وباخ وموزار وشوبين وبيزيه وفردي — في زمن نرى فيه من يخترع القنبلة الذرية بدلاً من أن يخفف مصائب المجتمع .

***

فإذا كان الرسم والموسيقى قد منيا بالرزية الفادحة فهل يتمتع الشعر ، وهو أجلى مظهر من مظاهر الألوهة في الإنسان ، بتلك المنزلة التي كان يشغلها قديماً ؟

لقد كان للشعر دولة وأعلام في الغرب ؛ أما اليوم فنرى نظماً لا شعراً ، وتشوراً لا لباباً ، وتناثاً لا نوراً . والسبب الوحيد هو أن الإنسانية أشاحت عن جوهر الجمال إلى مساخر مموهة بالطلاء والمساحيق . ومهد لهذه الحالة ما عصف بالمجتمع من زعازع ، وما روعه من مصائب ، فأفلتت أعنة الشعر من أيدي الشعراء وراح بعضهم يجشم الألفاظ والبحور ما لا طاقة لها به .

كان الشاعر يحمل على جبينه نجمة الإلهام فيتقوى على النوائب ويخوض الظلمات غائصاً إلى الأعماق ، فصرف نفسه عن الهدف المقصود متلهياً بالأوضاع السخيفة تلهي الطفل بالأكر ... وهكذا فقدت الحياة تلك الرومانسية التي كانت ترفل في أوشحتها المفاضة .

فإذا لم يتحرر الشاعر من مادية هذا العصر ويعمد إلى قيثارته القديمة فإن الشعر سائر إلى الموت .

هذا — وهل يستطيع أن يسمعنا أنظم الحياة بما فيها من خير وشر وقبح وجمال غير الشاعر ؟ وهو لا يؤدي رسالته في الناس إلا حين يصور لهم أحزانهم وأفراحهم ، ويهديهم إلى مواطن الحق حيث تسود الميول والعاطفة والإحساس .

الواحدة ، وفي الجماعة ، وعلى قدر قوتها وصحتها تكون قوة الائتلاف وصحته ، وتكون استقامة الواحد والجماعة على العمل الصالح ، والدأب على المسير والصبر عليه ، والثبات في الشدائد حتى تزول ، والتجلد في المحرمات حتى تنجلي . وفي القرآن الكريم : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم » . « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ويضل الله الظالمين ، ويفعل الله ما يشاء » .

وسنبين من بعد الأصل الذي ترجع إليه فروع الإيمان الصحيح ، والقاعدة التي تقوم عليها طمأنينة الناس ونجاتهم من الضلال والحيرة إن شاء الله .

(الكلام صلة)

عبد الوهاب عزام